الفصل الحادى عشر

صلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولة الأيوبية

٥٢ - حالة العالم الإسلامى

قبل أن نشرح سيرة السلطان صلاح الدين نمهد للقارئ الأسباب التى ساعدته عَلَى بلوغ هذا المقام العالى فنقول: كان العالم الإسلامى فى سبات عميق فالأشراف يتنازعون الخلافة حتى لا يكاد يمر عام إلا ونسمع أنهُ خطب لفلان عَلَى منابر اليمن أو الحجاز أو مصر ولآخر فى شمال إفريقية أو العراق أو طبرستان إلخ. والأمراء والملوك اقتسموا البلاد فاقتطع بنوزنكى «مماليك السلاجقة» ولاية الموصل وامتدوا إلى سورية واشتهر منهم نور الدين بمناهضته للفرنج فامتلك دمشق سنة ٥٤٩ هـ واختار أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين قائدًا عامًا لجنوده.

فلما اختلت أحكام مصر وغُلب الخلفاء عَلَى أمرهم تواثب الأمراء وطمعوا فى الوزارة فتولاها فى سنة واحدة أربعة ونهض أمير الصعيد ضرغام وغصبها من شاور الذى التجأ إلى دمشق وطلب إلى نور الدين أن يساعده بقوة عسكرية لاسترجاع منصبه بشرط أن يعطيه ثلث حاصلات البلاد خلا إقطاعات العساكر ويظل شيركوه بعساكره فى مصر «احتلال عسكرى» فأرسل معُ أسد الدين شيركوه فدخل مصر وقتل ضرغامًا وعين شاورًا محله فنكث وعده واستعان بالصليبيين علَى اخرج أسد الدين من بلاده فأجابوه وردوا الجيوش الشامية.

وفى سنة ٥٦٢ هـ سار أسد الدين ثانية إلى مصر بجيش مجهز ففتح ثغر الإسكندرية واثخن فى الصليبيين وعساكر مصر وفتح الصعيد وجبى أمواله وأخيرًا اتفقوا عَلَى أن تبرح جنود نور الدين والصليبيين مصر بشرط أن يدفعوا إلى شيركوه خمسين ألف دينار سوى ما جباه من الأموال فتمت المعاهدة ورجع إلى الشام. لكن

الصليبيين نقضوا وتواطأوا مع المصريين عَلَى أن يكون لهم بالقاهرة شحنة تحرس أبواب المدينة ويعطى لها معاشًا سنويًا مائة ألف دينار من واردات مصر فتجاوزوا هذا الحد وتجبروا وطمعوا فى استملاك البلاد وأرسلوا جندًا للاستيلاء عَلَى مدينة بلبيس وأفحشوا فيها وحاصروا القاهرة فاستغاث الخليفة العاضد بنور الدين واستنجده فلباه بإرسال أسد الدين مع جيش كبير مجهز بالمهمات وأعطى لكل جندى علاوة عَلَى راتبه عشرين دينارًا فساروا حتى قاربوا مصر فرحل الفرنج عنها واستمر أسد الدين فى سيره حتى قدم القاهرة فدخلها ورضى عنه العاضد لكن شاور أخذ يماطل فى قطاع الجند وثلث البلاد ففرغ صبر صلاح الدين وفتك به فخلع العاضد على شيركوه خلع الوزارة ولقبهُ الملك المنصور. وبعد شهرين وخمسة أيام من تاريخ وزرته توفى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾[1] فهب أمراء الأجناد يطالبون منصبه وكل منهم جمع أصحابه ليغالب عليه فاختار العاضد يوسف صلاح الدين ابن أخى أسد الدين وولاه الوزارة وخلع عليه مراسميها ظانا أنه صغير السن قليل الاختبار و الدربة فيتمكن منه بما يريد ويستميل الجند ويخرجه من بلاده ويسترد استقلاله. وطمع الفرنج فى صلاح الدين وحاولوا امتلاك مصر فساروا إلى دمياط وحصروها سنة ٥٦٥ هـ وسنة ١١٦٩م فقاومهم صلاح الدين وأغار على بلادهم الشامية وناوأ الكرك فخافوا العقبى وارتدوا عَلَى أعقابهم داقتفاهم وكبس عسقلان والرملة ونهب ربض غزة وفتح فرضة ليلة «العقبة» ثم أرسل اخاه شمس الدولة إلى اليمن ففتحها وتوغل هو فى السودان وضمهُ إلى مصر فدبت الغيرة فى صدر نور الدين وخشى أن يتفق صلاح الدين والفاطميون ويخلعوا طاعته فطلب إليه أن يقطع خطبة العاضد ويخطب إلى المستضئ العباسى ابتغاء جمع الكلمة فتردد صلاح الدين قليلا ثم أمر سنة ٥٦٧ هـ وسنة ١١٧١ م بلبس السواد شعار العباسيين وخطب فى الجوامع للمستضئ وقطع خطبة الفاطميين فانقرضت الخلافة الفاطمية بعد أن دامت

---

(١) سورة الأنعام الآية ٤٤

٢٦١سنة فلم تطب نفس نور الدين وخاف العقبى فاستوحش صلاح الدين وسعى ليبقى الفرنج حاجزًا بينهما وكم حاول نور الدين الاجتماع به فلم يتوفق لأنه كان إذا ما اقترب منهُ قفل راجعًا إلى مصر متعللاً بالأعذار وظل يراوغ أحدهما الآخر حتى توفى نور الدين واستخلف بعده ولده الملك الصالح إسماعيل فخطب له صلاح الدين وضرب السكة باسمهِ وتربص مترقبًا حصول فتنة أو خلاف فى بيت زنكى فلما حدث أسرع إلى دمشق وفتحها وهو يظهر الطاعة إلى الملك الصالح الذى كان يخاطبه بالمملوك ثم فتح قلعة حمص وبعلبك وحماه وغير ذلك.

وفى سنة ٥٧٣ هـ سار صلاح الدين إلى ساحل الشام فوصل عسقلان وبث السرايا للغارة والإرهاب وانفرد بثلة قليلة من الجند فباغتهُ الفرنج على نهر روبين وفتكوا بجنده فرجع مخذولاً وأرسل إلى أخيه توران شاه يقول:

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

نجونا من الموت الوحى غير مرة وما يثبت إلا وفى نفسها أمر

وفى سنة ٥٨٠ هـ بنى الفرنج حصنًا منيعًا بمخاضة الأحزان (جسر بنات يعقوب قرب صفد) فعز ذلك عَلى صلاح الدين فواقعهم وبعد معركة شديدة أسر فيها حكام الرملة ونابلس وطبرية وجنين. فتح الحصن وهدمهُ وكان فخر هذا النصر إلى فرخشاه ابن أخى صلاح الدين الذى غشى الوغى وهو يتمثل:

فإن تكن الدولات قسمًا فإنها لمن يرد الموت الزؤام تؤول

وَمَنْ هوَّن الدنيا على النفس ساعة وللبيض فى هام الكماة صليل

إن الحركات الحربية بين الصليبيين والوطنيين كانت تدور شرقى القدس عَلَى الكرك والشوبك لأنهما فى طريق الحج وجسر اتصال بين الشام والحجاز ومصر ومن جهة غربها عَلَى عسقلان لأنها محطة الارتباط بين مصر ودمشق فمن يملك هذين المركزين كان يقطع المواصلات ويعوق الحركات وقد أدرك الصليبيون مكانة هذه النقط فامتلكوها واحتفظوا بها وحصنوها فحجزوا ما بين مصر والشام وضيقوا مجرى تنفسهما بل داخلهم الغرور وطمعوا فى مهاجمة مكة والمدينة المقدستين

للقضاء على الدين الإسلامى فسار البرنس ارنا (رينو) Renaud صاحب الكـرك إلى تيماء فى سنة ٥٧٧هـ وسنة ١١٨٢م مستطلعًا فسمع بذلك عز الديـن فرخشـاه والى دمشق وسار مجدًا إلى الكرك فنهب بلادها وصد ارناط عن التقدم ولكـن فـى سـنة ٥٧٨هـ نضجت فكرة فتح الحجاز فى دماغ البرنس ارناط وعزم عَلِى خَضَدِ شـوكة المسلمين فعمل أسـطولاً وجمـع قطعـه مفككـة وحملـها إلى بحـر إيلـة ثـم ركبـها وشحنها بالمقاتلة وسيرها فى البحر الأحمر وحصر من فى إيلة ومخر من معه بحر عيذاب وأفسدوا السواحل فعرف الملك العادل وأمر قـائد أسـطوله لؤلـؤًا بمطاردتـهِ فسار وبلغ إيلة وقتل من عليها وتبع من فى البحر بمراكبهِ وجنـده فأدركـهم فـى ساحل الجوزاء وأوقع بهم فاعتصموا بشعاب البر فأخذ خيلاً من الأعراب وأركبها جنده وما زال يقاتلهم حتى ظفر بهم وأسر منهم كثيرًا ونحرهم وسار صلاح الديـن من دمشق إلى طبريا فخيم فى الأقحوانة ونزل الفرنـج طبريـا فشد فرخشـاه عَلَـى بيسان وفتحها وغنم ما فيها ثم أغـار على جنين واللجون ومرج عكا.

وعاود الكرة ثانية ففزا بيسان وخربها وأغار عَلَى الكرك ولما صدر عنـها نـهب مدينة نابلس وأحرقها ونهب كل ما عَلَى طريقـها ونـهب سبسطية وجنـين وفـى سنة ٥٨٢هـ انحاز كونت (قُمص) طرابلس إلى صلاح الدين فوعده بالمناصرة وضمن له أن يجعله ملكًا مستقلاً وأطلق من عنده من أسراء. وقد طاش سهم البرنس أرناط فغدر بعهده بعد الهدنة وأغار عَلَى قافلة عظيمـة كـان فيـها أخـت صـلاح الديـن فنهبها وأسر رجالها. فغضب الأفضل بن صلاح الديـن وغـزا بـلاد عكـا وحـارب الأعداء فى قرية صفورية فكسرهم وقتـل عـددًا مـن شـجعانهم ولكـن جميـع هـذه المواقع مع الفرنج لم تكن سوى مناوشات ومقدمات لمعركة فاصلة إما أن تكـون لـه أو عليه.

٥٢ - معركة حطين(*)

رأى صلاح الدين الفرنج قد أسسوا أربع مقاطعـات فـى داخـل مملكتـه: الأولى مقاطعة القدس والثانية طرابلس الشام والثالثـة إنطاكيـة والرابعـة الرهـا وارفـا وأن

(*) قرية صغيرة واقعة فوق تل يشرف على غرب بحيرة طبريا

تلك المقاطعات بؤرة ثورات وفساد فى قلب مملكته. وكان أشدهن تنكيلاً برجاله وأثقلهن عليه مقاطعة فلسطين وأعظم أبطالها وأعندهم البرنس ارناط صاحب الكرك الذى حاول احتلال الحجاز وتعرض لأخت صلاح الدين وكرر نكثه للعهود مما أسخط المسلمين وأحفظهم عَلَى صلاح الدين فأطالوا ألسنتهم وفوّقوا إليهِ سهام السباب واللعن وقالوا: «ترك قتال الفرنج وأقبل عَلَى المسلمين يقاتلهم ويفتح بلادهم». فتحركت لذلك غيرة صلاح الدين واستفز الناس للجهاد وجمع جيشًا عرمرمًا وعسكر فى سهل الاقحوانة واستشار فأشار عليه بعضهم بترك مناضلة الأعداء والاكتفاء بشن الغارات وأشار عليه الآخرون بملاقاتهم ومناجزتهم فعزم عَلَى المناجزة والدخول مع الفرنج فى ملحمة كبرى فسار إلى طبرية وفتح المدينة دون القلعة وأحرق ما فيها من الذخائر الفاضلة عن حاجتهِ واحتفظ بمنابع المياه ولما أحس الفرنج بعمله استخفوا به وبجيشه وساروا إلى ملاقاتهِ فى ٢ تموز الموافق ٢٤ ربيع الآخر فاشتد عليهم العطش من حمارة القيظ وتقابل الفريقان فى سهل قرية لوبيا وعزم الفرنج عَلَى ورود الماء فأدرك صلاح الدين مرادهم وصدهم عنهُ وأمر بإحراق العشب والأشواك فأخذ منهم الظمأ كل مأخذ وحملوا حملات عنيفة كادوا يزيلون بها المسلمين لولا ثبات أبناء فلسطين الذين استماتوا فى حومة الوغى حتى هب عليهم ريح النصر وكسروا الفرنج وركبوا أقفيتهم وطحنوا جيشهم حتى لم تقم لهم بعدها قائمة وتقدر قتلاهم فى حطين بثلاثين ألفًا خلا الأسرى فقد أسروا كثيرا من أبطالهم منهم الملك (Guy) غاى ورنو (ارناط) صاحب الكرك وبعد أن فرغ المسلمون من القتال فائزين جلس صلاح الدين فى خيمتهِ وأحضر ملك الفرنج ورنو صاحب الكرك وأجلس الملك إلى يمينه وأعطاه ماءً مثلوجًا فشرب وأعطى فضله البرنس ارناط فغضب السلطان وقال للملك إن هذا الملعون لم يشرب بإذنى فينال أمانى ثم التفت إلى البرنس وذكره بذنوبهِ وعدد عليه عوراته وقام إليه بنفسهِ وضرب رقبته وقال كنت نذرت مرتين أن أقتله إن ظفرت بهِ الأولى حينما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القافلة غدرًا ثم أمر بهِ فسحب إلى خارج المكان وباسط الملك وأمّنهُ.

كانت معركة حطين من المعارك الفاصلة التى ختمت الحروب الطويلة بين الشرق والغرب وجدير بأهل فلسطين أن يجعلوا يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة٥٨٣هـ عيدًا سنويًا وتذكارًا روحيًا عظيمًا فإن فيهِ خضدت شوكة الجيش الصليبى وفلّ حده وقويت جموع الوطنيين وانتعشت نفوسهم فعادوا إلى طبريا وتسلموا قلعتها من زوجة صاحبها أمانًا ووفى لها صلاح الدين ثم سار إلى عكا وامتلكها وجاءَ الملك العادل من مصر وفتح حسن مجدل يابا (مجدل الصادق) ويافا وساحت عساكر السلطان فى البلاد ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا فالشقيف وغيرها من البلادالمجاورة ثم سبسطية ونابلس واجتمع عسكر الملك صلاح الدين بجنود أخيه العادل وساروا إلى عسقلان وفتحوها وبثوا السرايا فى أطراف البلاد المجاورة ففتحوا الرملة واللد وغزة والخَليل وبينة وبيت لحم وبيت جبرين. وأمر قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤًا أن يقطع طريق البحر ويتصيد مراكب العدو ويمنعها أن ترسوا عَلَى سواحل البلاد وأرسل رسلاً لمفاوضة أهل القدس كى يسلموا المدينة فرفضوا فنهد إليهم بجنده وخيم على التكفورية بين المحطة وبركة ماملا وظل خمسة أيام يطوف حولها لينظر أى الجهات أسهل للمهاجمة ثم انتقل بجيشهِ إلى الشمال الغربى جهة المسكوبية وباب العمود وباب الساهرة وشدد الحصار فسلمت المدينة يوم الجمعة فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ وفى ٢ تشرين أول سنة ١١٨٧م عَلَى شروط منها:

أن يؤُخذ عن كل رجل ١٠ دنانير والمرأة والولد ديناران فدية ومن لم يدفع حتى أربعين يومًا يصبح مملوكًا للعرب فبذل باليان عن فقراء قومه ثلاثين ألف دينار ووضع صلاح الدين عَلَى أبواب البلدة أمناء ليأخذوا ما ضرب عَلَى الفرنج وأظهر من العدل والعظمة ما شهد له بهِ الأعداء فسمح لنساء الملوك والأميرات بحشمهن وخدمهن ولم يأخذ من البطريرك إلا عشرة دنانير ولم يشره إلى ما كان معهُ من الأموال والذخائر وعامل نصارى العرب معاملة حسنة وترك لهم أموالهم وأملاكهم وسمح لهم أن يشتروا متاع الإفرنج وقد وهب لمظفر الدين كوكبورى ألف مملوك من الفرنج فأعتقهم ووهب أيضًا لأخيه العادل ولكثير من الأمراء أمثال ذلك ووزع الأموال والدواب على الضعفاء ورفق بالفقراء فسمح لهم بالخروج من باب

العمود وأرسل معهم جنودًا لإيصالهم إلى المدن التى كانت لا تزال فى أيديهم فأنكرهم إخوانهم وأبوا قبولهم وأغلقوا الأبواب فى وجوههم وأرسلوا خلفهم من نهب متاعهم. فتاهوا فى الفيافى وتشتتوا فى أنحاء البلاد فرثى لهم عدوهم العربى ورحمهم وأغلظ لهم صديقهم الغربى وجفاهم مشايعهم الأفرنجى ولو أنا قابلنا هذا العمل بما أتاه الفرنج قبل ٨٨ سنة لرأينا الأخلاق والإنسانية والمكارم وعزة الملك وكبر النفس جلية فى أعمال صلاح الدين وشهدنا القساوة والفظاعة والتوحش والتعصب واضحًا فى أفعال غودفرى الذى قضى على ألوف من المسلمين.

أكمل صلاح الدين الأيوبى عمله وشرع ينظم المدينة فأزال كل أثر صليبى فى الصخرة والمسجد الأقصى وكسر الصور والتماثيل الصغيرة والصلبان التى نقشوها ونقل إلى المسجد الأقصى المنبر الذى أمر بصنعهِ نور الدين زنكى فى حلب وبلغ فى إتقانهِ فاستغرق عمله عدة سنوات وكان بين صنعه ونقله إلى القدس ٢٠ سنة وأمر بعمارة المسجد الأقصى وتحسينه وترصيفه بالفسيفساء والرخام وغير ذلك مما يحتاج إليه وجعل كنيسة القديسة «حنة» مدرسة للشافعية (الصلاحية) وأخذ قسمًا من منزل البطريرك وحَوَّله إلى جامع وخانقاه للصوفية (الخانكى). وفى سنة ٥٨٤هـ فتح الملك العادل قلعة الكرك والشوبك وسار صلاح الدين إلى صفد فامتلكها وذهب من فيها إلى صور وفتح حصن كوكب بعد عناء والتحق فرنجه بصور حتى غصت بالمهاجرين وانقلب افراط صلاح الدين وتساهله مع الفرنج وبالاً عليه حتى قال ابن الأثير (لم يكن لأحد ذنب فى أمر صور غير صلاح الدين فإنهُ هو الذى جهز إليها جنود الفرنج وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا والقدس وعسقلان) فأصبحت مركزًا لحملاتهم ونجداتهم ولكن سورية ومصر أصبحت متصلة بعضها ببعض لا يفصلهما تخم ولا يحجز بينهما عدو.

٥٤ - الحملة الصليبية الثالثة

كان العالم الإسلامى يظن أن الحروب الصليبية قد انتهت ولم يدر أن وقوع القدس فى يد صلاح الدين أحدث تأثيرًا عظيمًا وصدى سيئًا فى نفوس الغربيين

فقام منهم رجال كثيرون وحرضوا قومهم عَلَى استرجاع القدس وانتزاعها من أيدى المسلمين فنجحوا وأجمعت أمم أوروبا وحكوماتها ثانية عَلَى محاربة الشرق الأدنى وإعلان النفير العام لاسترجاع القدس فهب ربكاردوس البطل الشهير الملقب بقلب الأسد وترك عرشه فى إنكلترا رغبة فى إنقاذ بيت المقدس ونهد إمبراطور ألمانيا بربروسا (ذو اللحية الحمراء) وآزرهما فيليب أوغسطس ملك فرنسا فغرق ملك الألمان فى نهر سالون قرب أنطاكية ورجع فيليب إلى فرنسا بعد فتح عكا وقام بالمهمة قلب الأسد.

تكاثرت جموع الفرنج فى صور فتحمسوا وجددوا نشاطهم واضطرمت النار بغتة فى صدورهم فساروا بجموعهم إلى عكا فخف لصدهم صلاح الدين فسبقوه لأنه كان وقتئذ موعوكاً فمرَّ بكفر كناوخيم عَلَى تل كيسان وامتدت ميمنته إلى تل العياضية وميسرته إلى نهر المقطع وأنزل الأثقال فى قرية صفورية واستعرت الحرب بين الفريقين وحدثت موقعة طاحنة انهزم فيها قسم من الوطنيين وفاز الباقون وظفروا بعدوهم ثم انتكست صحة صلاح الدين فرحل إلى الخروبة (تل الفخار) حيث توفى أحد قواده ضياء الدين عيسى الهكارى العلمى الحسنى فنقل إلى القدس ولما أبلّ صلاح الدين عاد إلى مخيمه القديم (تل كيسان) فوجد الفرنج يجدون فى حصار عكا وقد احتاطت بها أبراجهم فاخترع على بن عريف النحاسين الدمشقى نفطاً أحرق به الأبراج الثلاثة فاطمأن السلطان ورجع إلى الخروبة ونقل أثقال المسلمين إلى قرية الدامون (سيمون) الواقعة على بعد ٣ فراسخ من الخروبة وقد ذكر ابن الأثير أن نصارى العرب كانوا مأمورى إعاشة جيش صلاح الدين وخزنة أمواله وكان مركزهم فى مدينة حيفا وظل الحرب سجالاً إلى أن قدم فيليب ملك فرنسا فجد فى قتال مسلمى عكا وشدد فى حصارهم فكان صلاح الدين يركب يوميًا من شفا عمرو ويشاغلهم بالقتال ليفرج عن البلد فلما أتى قلب الأسد تحول صلاح الدين ونزل عليهم لئلا يتعب عسكره من الغدو والرواح وفى ١٧ جمادى الأخرى استولى الفرنج عَلَى عكا سلمًا بشروط غدروا ولم يفوا بها وانحدر قلب الأسد جنوبا وعسكر صلاح الدين بجانبهم من جهة الشرق فالتقوا فى مدينة ارسوف (على مقربة من حرم على بن عليم) واضطربوا فهزم جيش المسلمين وأخذ

الفرنج يفتحون البلاد الصغيرة حتى إنهم دخلوا يافا ولم يجدوا فيها أحدًا. أما صلاح الدين فإنهُ استشار قواده فى شأن عسقلان فقرروا هدمها لمكانة موقعها الحربى ولعجزهم عن حمايتها ولأن من يستولى عليها يستطيع أن يقطع الطريق بين مصر ودمشق وقد ذكرنا سابقًا أن صلاح الدين كان يرسل نجداته وجيوشه عن طريق البادية خيفة هجمات الحصون الساحلية. فهدم صلاح الدين مدينة عسقلان وباع أهلها كل ١٢ دجاجة بدرهم وانقلب إلى الرملة فخرب حصنها وهدم قسمًا من اللد وخرب قلعة الاطرون. فأخذ المركيز كونراد قلب الأسد على تمكين أعدائه من هدم وتخريب عسقلان ولكن قلب الأسد لم يعبأ بتقريعهِ ومال إلى عقد هدنة وفاوض الملكِ العادل وكان يدخل معسكر المسلمين ويطرب إلى موسيقى العرب ويعجب بنغماتها وبعد المذكرات اتفقا عَلَى شروط وهى:

– أن يتزوج الملك العادل أخت قلب الأسد أرملة ملك صقلية وتكون القدس وما فى أيدى المسلمين من بلاد الساحل للملك العادل وعكا وما فى أيدى الفرنج من البلاد لأخت قلب الأسد مضافًا إلى أقطاعها فى بلادها ووافق على ذلك صلاح الدين إلا أن القسيسين والأساقفة حالوا بين ذلك ومنعوه فانقطعت المفاوضة وعادت البلاد إلى الحرب فناجز صلاح الدين الفرنج حتى الشتاء ثم انسحب إلى القدس فتبعوه إلى الاطرون ففزع منهم وأمر بعمارة سور بين المقدس وتجديد ما رث منهُ وكان ينقل الحجارة بنفسهِ مع العمال وأحكم المحل الذى ملك منهُ البلد وأتقنه وقوَّاه وأمر بحفر خندق خارج السور وسلم كل برج إلى أمير فرجع الصليبيون إلى الرملة ومضوا إلى عسقلان وشرعوا فى عمارتها لما لها من المركز الحربى والتجارى.

وفى سنة ٥٨٨هـ استولى الفرنج عَلَى حصن الداروم[1] ورجعوا إلى قرية بيت نوبة ومنها إلى قلونية فردتهم سرايا المسلمين فأغاروا عَلَى قافلة بجوار الخليل وأوقعوا بها ونهبوها. فغضب لذلك صلاح الدين وحاصر يافا وملك المدينة دون

(١) بين غزة والعريش ونظنه تل العجول وفى جنوب غزة محل يدعى باب الداروم يؤدى إلى ذلك التل الذى يبعد فرسخًا من البحر كما ذكر.

القلعة ثم تركها وعاد إلى الرملة وفى شهر شعبان الموافق لشهر أيلول من السنة المذكورة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة على شروط منها:

١ – أن تظل عسقلان خرابًا وتبقى أملاك صلاح الدين فى يده وأملاك الفرنج فى أيديهم وهى يافا وقيسارية وارسوف وحيفا وعكا وأعمالها جميعًا أما اللد والرملة فتبقى (مناصفة) مشتركة بين الفريقين.

٢ – وأن تكون الهدنة ٣ سنين و ٨ شهور.

٣ – وألاّ يتعرض الصليبيون لبيت المقدس.

٤ – وأن يسمح صلاح الدين لزوار الفرنج بدخول القدس فأتى الزوار إليها وزاروها فعلاً وسمى هذا الصلح (صلح الرملة) وبعد انعقاد الهدنة رحل قلب الأسد إلى عكا ومنها إلى إنكليرا فتفقد صلاح الدين القلاع والحصون ثم ذهب إلى دمشق بعد أن أناب عَلَى القدس الأمير جورديك ولكن فاجأته المنية فى صفر سنة٥٨٩هـ الموافق شهر شباط سنة ١١٩٣م فدفن فى القلعة ثم نقل إلى جوار الجامع الأموى وقبره مشهور ولابد هنا من أن نذكر صفحة من حسنات هذا البطل العظيم والقائد الكبير فنقول:

إنه وإن كان صلاح الدين كرديًا(*) فإنه كان من عظماء رجال الإسلام وقد خدم العرب خدمات جليلة وأظهر من محاسن الشيم ما خلد ذكره فمنها:

١ – معاملته الحسنة لصليبيى بيت المقدس مع أنهم من الدّ أعدائه.

٢ - ملاطفة أسرى حطين وتقديم الماء المثلوج إلى الملك.

٣ – إكرام وفادة أرملة رنو صاحب الكرك لما جاءت تطلب ابنها.

٤ – حفظه للعهود واستكباره غدر الفرنج ونكثهم بها وعفوه عمن أراد قتله. إلا أنهُ كان مفرطًا فى الحلم وكل شىء تجاوز حده انقلب إلى ضده فإن قواده طمعوا فيه وأخذوا يخالفون أمره.

(*) ذهب كثير من المؤرخين أن بعض القبائل العربية نزحت إلى بلاد الأكراد فامتزجت بالقبائل الكردية ويرجعون بنسب صلاح الدين إلى الحسن بن على بن أبى طالب.

إن صلاح الدين لم يكن قائدًا فقط بل كان رجل أخلاق ودين يغار عَلَى الإسلام ويدافع عنهُ بكل غيرة وإخلاص فقد جمع كلمة المسلمين المتفرقة وألف بين قلوبهم وأخرج الأجانب من ديارهم وأباد الفاطميين وأيد كلمة العباسيين وبنى المدارس والرباطات ومات ولم يترك فى خزينته سوى دينار وأربعين درهمًا فمن للشرق اليوم بمثل هذا البطل العظيم ينهض به من كبوته وينقذ أهله من براثن الموت والشقاء.

٥٥ - صلاح الدين ومواسم فلسطين وشىء عن القبائل:

فتح الفرنج البلاد فأخذوا يظلمون العرب مسلميهم ومسيحيهم فنزح بعضهم إلى الأقطار العربية الخارجة عن سلطة الفرنج فلما استجاش صلاح الدين الملوك والأمراء والقبائل وصدم الفرنج فى وقعة حطين وأزاحهم عن البلاد شغرت أكثر مدن فلسطين فاسكنها القبائل وأقطعها لهم فتوطن القدس موقتًا قبائل بنى حارث وكانت منازلهم خارج المدينة عند القلعة وحارة بنى مرة فى جهة الغرب الشمالى إلى سوق الفخر «خان الزيت» وحارة السعدية لبنى سعد(*) ويلى عقبة الشيوخ من جهة الشمال حارة بنى زيد وحارة الجرامنة سوق القطانين ثم وزعهم عَلَى البلدان التى حول القدس فأخذ بنى زيد ١٩ قرية شمال رام الله والحق بهم بنى مرة وهم ثمانى قرى وبنى سالم وهم فى أربع قرى وعهد إليهم بحماية برج مجدل يابا «مجدل الصادق» وماء نهر الأعوج والطريق بين القدس ونابلس. وأنشأ لهم موسمًا فى مقام النبى صالح يقام فى جمعة زفة البيارق «الجمعة الحزينة» فى القدس وأعطى بنى حارث ١٧ قرية جنوب بنى زيد وعمل لهم موسمًا فى النبى عنير يوم الجمعة المذكورة واختص الأمراء الجرامنة بسواحل يافا والعراق ووادى الصرار وبنى عمير وأخذ بنى حمار ١١ قرية وجعل لهم جميعهم موسم النبى صالح فى الرملة وأخذ بنى صعب ٢٨ قرية والحق بهم الشعراوية وعين لهم موسمًا فى

(*) منهم دار نجم وغيرهم كان لهم حراسة باب الخليل ومفتاحه فى يدهم وكان لهم مضافة فى حيهم.

أبى العون وعلى بن عليم ثم تحول زمانه واختلف عن المواسم الأخرى وأنشأ بغزة موسم الداروم وعمل إلى بدو غزة موسم المنطار والى بدو عسقلان وأطرافها موسم الحسين وعين إلى عرب المساعيد والمشالخة والصقر موسم أبى عبيدة بن الجراح وجعلها جميعها تابعة لموسم النبى موسى الذى جمع له بنى مالك وهم ٢٤ قرية وبنى حسن وهم ١٣ قرية وجبل القدس وهم ٢٢ قرية والوادية وهم ٩ قرى وعززهم بجبل الخليل وجبل نابلس الذين يردون متعاقبين إلى القدس. وتتوافد قبائل شرقى الأردن إلى مشهد النبى موسى فتصادف جميع هذه المواسم عيد الفصح الذى يأتى فيه الأوروبيون لزيارة القدس فتكون آنذاك الأهالى فى نفير عام قد تجمهروا فى شعبات أخذ عسكر بنى صالح بنى زيد وبنى عنير بنى حارث وبنى صالح الرملة وروبين يافا وحسين عسقلان ومنطار العربان وداروم غزة وأبى العون بنى صعب وأبى عبيدة الغور ونبى موسى القدس مستعدين بسلاحهم وذخائرهم ومؤونتهم لمفاجأة الطوارئ فإذا ما حدث فتق فزعوا لرئقه لأن السلطان صلاح الدين ألف من غدر الصليبيين ونكثهم بالعود ما جعله يحتاط ويخشى إن هم دخلوا القدس زوارًا ينقلبون جنودًا ويحتلون المدينة ويمتلكونها سلمًا فأنشأ هذه المواسم موافقة لأيام عيدهم لتكون القدس حينئذ غاصة بأهالى الخليل ونابلس المجاورة وتكون البلاد كأنها ثكنة عسكرية متأهبة لرد كل غارة ودفع كل عداء. وبهذا العمل استطاع أن يأمن غدر الأجانب ويعصم البلاد من التعديات المتكررة ولما جاء الملك الظاهر بيبرس ومن خلفه من الملوك استحسنوا رأيه ونظموا هذا العمل وهو نظر بعيد وفكر صائب يستحق عليهِ الشكر الجزيل والثناء الخالدلانه عيد استقلال البلاد وذكرى خلاصها. وجدير بالأمة أن تستفيد من هذه المواسم الوطنية فوائد اقتصادية واجتماعية.

٥٦ - فلسطين والدولة الأيوبية سنة ٥٩٠ هـ - ٦٤٨ هـ وسنة ١١٩٣ م - ١٢٥٠ م:

أسست الدولة الأيوبية على عظمة صلاح الدين ودفنت بدفنه لأنه ألَّف بين عدة خيوط غير مؤتلفةٍ ولا متفقة فانتقضت من بعده وقد أحس صلاح الدين بهذا

الخطر الذى يتهدد دولته فجمع القواد والعساكر غير مرة وأخذ عليهم عهد الطاعة لولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين واقطعهُ دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وسورية الغربية فلما توفى صلاح الدين انتكث الغزل وانتثرت جماعاته أفرادًا وطمع بعضهم ببعض ونسوا عدوهم الغريب فاستقل الملك الظاهر فى حلب وسورية الشمالية وربض الملك العزيز فى مصر واستولى عليها وطمع الملك العادل أخو صلاح الدين فى الكرك والشوبك واحتمى بهما. فأصبحت فلسطين بهذا التقسيم موزعة بين ثلاث دول الملك الأفضل والملك العادل والفرنج ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً لأن الملك العادّل ولع بإغراء بنى أخيه عَلَى بعضهم بعضًا وأنساهم عهد صلاح الدين إلى الأفضل ومناهم بالملك فتشوف كل منهم إلى حصر السلطة فى يده والقضاء عَلَى ما سواه. فتنبه لذلك الملك الظاهر وقال للأفضل «اخرج عمنا من بيننا فإنهُ لا يجىء علينا منهُ خير ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد» فرفض الأفضل وظل منصاعًا لدسائس الملك العادل فحنق العزيز وسار إلى دمشق وحصر الأفضل بها فاستنجد عمه العادل واستحثه فاتاه بجند كثيف وترددت بينهم الرسل عَلَى أن يضم إلى العزيز القدس وما جاورها فرضى وقفل راجعًا ولكنهُ عاد إليها ثانية فلم يحل بطائل. ثم اتفق الأفضل والعادل عَلَى فتح مصر وضمها للأفضل مع دمشق فسارا وملكا القدس من واليها سنقر الكبير وجاسوا بلاد مصر فاذنلب العادل عن الأفضل ونكث عهده. ومالأ العزيز سرًا وتوسط فى الصلح عَلَى أن تظل البلاد كما كانت بشرط أن يقيم هو فى مصر فنجح وبعدئذ أقنع العزيز وراوده على فتح دمشق واستخلاصها من الأفضل ففعلا وأخذاها منه وعَوَّضاه قلعة صرخد فاستوطنها وشكا أمره إلى الخليفة الناصر فقال :

مولاى إن أبا بكر وصاحبه ... عثمان قد أخذا بالظلم حق على

فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقى ... من الأواخر ما لاقى من الأول

فأجابه الناصر:

غصبوا عليًا حقه إذ لم يكن بعد النبى له يثرب ناصر
فاصبر فإن غدا عليه حسابهم وابشر فناصرك الإمام الناصر

فلما رأى الصليبيون الخلاف مستحكمًا بين العرب هاجموهم فناهضهم العادل وخيم على عين جالوت «بين جنين وبيسان» ثم رحل إلى يافا وملكها. وبعد أن توفى الملك العزيز سنة ٥٩٦ هـ ولى الأفضل الديار المصرية فخافهُ الأمير جركس «جهاركس» وفر إلى بيت المقدس وتغلب عليها ثم انضم إليه ميمون(*) القصرى حاكم نابلس فقويت شكوته وأرسلوا إلى العادل فجاءَ وأخذ البلاد من الأفضل وعوضهُ ميافارقين وبلادًا أخرى ولكنهُ لم يسلمها له.

وفى سنة ٥٩٧ هـ حدث زلزال هدم قسمًا من عكا ونابلس وفى سنة ٦٠٠ هـ تحرك الفرنج ونهبوا قرى الأردن فنهد إليهم العادل وعسكر قرب جبل طور الناصرة ثم عقدوا معاهدة عَلَى ما يأتى.

– أن يأخذ الفرنج الناصرة ويافا ويتنازل العادل لهم عن البلاد المشتركة بينهما كاللد والرملة وغيرهما.

ثم فى سنة ٦٠٩ هـ خرَّب الملك العادل حصن كوكب «قرب طبريا» ومحا أثره وبنى حصنًا عَلَى جبل الطور ثم خربه الملك المعظم سنة ٦١٤ هـ مخافة أن يملكه الفرنج لأنهم ثاروا وملكوا بيسان وعاثوا فى البلاد. ثم توفى العادل بعد أن قسم البلاد بين أولاده فجعل الملك الكامل عَلَى مصر والملك المعظم عَلَى جميع سورية فسار الملك المعظم وهدم أسوار القدس لعجزه عن حمايتها وخوفه أن يحتلها الفرنج ويمتنعوا بها وعمل أبواب الخشب التى عَلَى باب المسجد وأوقف لمسجد الخليل حاصلات قريتى دوره وكفر البريك. وفى سنة ٦٢٥ هـ سار الملك الكامل بعد وفاة أخيه المعظم وامتلك القدس ونابلس ثم تأخر إلى تل العجول(*) مشاقًا لإخوانه فقابله الملك الاشرف وحذره عاقبة الخلاف فرضى ولكن نفسه كانت تحدثه بامتلاك جميع البلاد غير ملتفت إلى النجدات والحملات الصليبية

(*) المنتسبة إليه المدرسة «المامونية»

(*) تل يبعد إلى الجنوب من عزة ١٥ كيلو متر تقريبًا وربما كان حصن الداروم.

المتعاقبة التى حاولت استرجاع القدس ولم تفلح. فلما استحكم وأعلنت المشاجرة بين أبناء العادل تسابقوا إلى مرضاة الفرنج ابتغاء التفرغ إلى بعضهم البعض فجاء فريدريك إمبراطور ألمانيا سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م وعقد معه الكامل هدنة عَلَى هذه الشروط:

١ – أن يسلم إلى الفرنج بيت المقدس مع بعض ملحقاتها بشرط ألاَّ يعمروا السور الذى خره الملك المعظم ولا يتصدوا لقبة الصخرة ولا للجامع الأقصى.

٢ – أن تظل «الرساتيق» الخليل ونابلس وطبريا والغور فى يد المسلمين. فتم هذا الاحتلال السلمى الذى لم يصادف قبولاً من الفرنج لأن الإمبراطور فريدريك كان محرومًا من البابا وغضب المسلمون عَلَى الكامل لأنه سلم القدس للفرنج بلا داعٍ يستند عليه إلا ليتقوى بهم على إخوانهِ وأبناء عمهِ. وفى سنة ٦٣٥ هـ توفى الملك الاشرف ملك دمشق وعهد بها إلى أخيه الملك الصالح إسماعيل وفى سنة ٦٣٦ هـ أعطى الصالح أيوب سنجار والرقة إلى الملك الجواد وأخذ منهُ دمشق فطمع بمصر وسار بعساكره ليأخذها فغدره الملك الصالح إسماعيل والملك المجاهد «صاحب حمص» وهجما عَلَى دمشق وأخذاها فلما بلغ الصالح أيوب الخبر وهو بالغور تفرق عنه جنوده فقصد نابلس ونزل بها فسار إليه الملك الناصر صاحب الكرك وأمسكه فاعتقله فى الكرك وأكرمه ثم جاء القدس فحصرها وفتحها وخرب قلعتها التى بناها الفرنج وخرب برج داود وعاهد الصالح أيوب وتحالفا على الصخرة بأن تكون مصر للصالح وسورية للناصر إذا هما امتلكاها فتوجها إلى مصر وفتحاها فخاف الصالح إسماعيل وسلم الفرنج سنة ٦٣٨ هـ صفد والشقيف وفى سنة ٦٤١ هـ اتفق الصالح إسماعيل والناصر داود مع الفرنج واعتضد بهم وسلما إليهم طبريا وعسقلان فعمروا قلعتهما ثم أباحا لهم القدس فغضب الصالح أيوب واستدعى الخوارزميين المنهزمين من وجه المغول وجنكيز خان.

٥٧ - الخوار زمية:

ينتسب هؤلاء القوم إلى بلاد خوار زم شرقى بحر قزوين وهم تتر كانوا أصحاب حكومة ودولة فلما طم عليهم سيل المغول وأباد حكومتهم ساحوا فى البلاد يقتلون

وينهبون كل من اعترض طريقهم بلا تفريق بين دين ومذهب وصدف أن كان الناس فوضى قد انقسموا عَلَى أنفسهم وتفرقت كلمتهم فأصبح كل زعيم لا يهمه سوى الاستئثار بالسلطة ولو بهدم أهله وذويه فمصلحته الشخصية فوق كل شيء إذا زاحمهُ قريبه استعان عليهِ بعدوهما الذى يجهز عليه بعد القضاء عَلَى ابن عمه فيكون بذلك كالباحث عن حتفهِ بظلفه قد طعن نفسه وهدم عشيرته وأهله الأقربين بمعول حب الذات والنفوذ.

ظل جنكيز خان المغولى يدحرج الخوارزميين وهم ينحدرون أمامه ولم يعقبوا حتى إذا وصلوا العراق جمعوا فلولهم ونظموا صفوفهم وأخذوا يتوسلون إلى الملك الصالح أيوب بقربى الدين لظنهم أنه أقوى الملوك فاستدعاهم إليه لمحاربة الفرنج وبنى عمه فاتفقوا معهُ عَلَى شرط أن يقطعهم الاقطاعات ويسكنهم البلدان فساروا إلى غزة سنة ٦٣٢ هـ وانضموا إلى أمير العساكر المصرية وقاتلوا الفرنج وعسكر الشام بظهر غزة فهزموهم واستولى الملك الصالح أيوب على غزة والسواحل وفتح القدس وقطع رؤوس الكهنة وخرَّب القبر المقدس والقى الرعب فى قلوب الأهلين.

ثم بدر الصالح إلى دمشق وحاصرها وفى سنة ٦٤٣ هـ فتحها وخاس بعهده مع الخوارزميين فنقموا عليهِ وحالفوا الملك الصالح إسماعيل عم الصالح أيوب وانضم إليهم أمراء المصريين والملك الناصر داود صاحب الكرك وحصروا دمشق فقلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة ولكن واليها حسام الدين قام فى حفظها خير قيام فانخذل المتحالفون وردّوا عَلَى أعقابهم خاسرين فهاجم الصالح أيوب شرقى الأردن واستولى على مدنه وتسلم الكرك سنة ٦٤٧ هـ وفى سنة ٦٤٥ هـ استعاد المسلمون عسقلان وطبريا من الفرنج فتحمس أهالى أوروبا وجردوا حملة صليبية سنة ١٢٤٨ م بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا فعرجت عَلَى مصر وحاصرت دمياط فغلبهم المصريون وشتتوا شملهم ففر أكثرهم إلى فرنسا والبعض الآخر إلى عكا ومكث لويس ملك فرنسا ٤ سنوات فى فلسطين وهو يحصن قيسارية ويافا مخافة أن يأخذها منهُ الوطنيون ولم تحدثه نفسه بمهاجمة القدس وأخيرًا رجع إلى فرنسا مخذولاً ولم يقم للصليبيين بعد ذلك قائمة لأنهم مكثوا فى البلاد أذلاء

غرباء ضعفاء حتى سنة ١٢٩١ م وسنة ٦٩٠ هـ فسلموا عكا وصور وصيدا وبيروت وعثليت وانطرطوس وتركوا فلسطين وودعوها الوداع الأخير بعد أن دامت حروبهم قرنين وهم القوم الأشداء البواسل الذين عضدتهم أمم أوروبا أجمع فلم يظفروا بما أملوا وظلت البلاد عربية وانتهت روايتهم بالخسران.

٥٨ - أضرار الحروب الصليبية بفلسطين وفوائدها

هل أفادت الحروب الصليبية فلسطين أو أضرتها؟

ليس من السهل الجواب عَلَى هذا السؤال لأنهُ يفتقر إلى تفصيل ولكنا نجمل البحث فنقول:

تضرر الشرق عامة وأهل سورية وفلسطين خاصة بالحروب الصليبية أكثر مما استفادوا ولكن الفرنج جنوا منها نفعًا أرجح من أضرارهم. وهذه نبذة من مضارها الجسيمة.

١ - أنها أشعلت نار التعصب الدينى بين المسلمين والمسيحيين وزرعت النفور بين الأهالى ونظن أن مداخلة الفرنج فى أحوال سورية وفلسطين أضرت ببعض المسيحيين الوطنيين فأفسدت عقيدتهم الوطنية ومنتهم بأحلام جميلة فإذا هى سراب. وقد رأوا بأم أعينهم أن مسلمى العرب قد أحسنوا ورفقوا بمسيحى العرب فى حين أن الفرنج قد أساءوا إليهم وأنكروهم.

٢ - أن هذه الحروب الطاحنة أضعفت روح القومية العربية فى نفوس نصارى الشرق وزادوا ولاء لبنى دينهم الأجانب وأكرم بنصارى فلسطين العرب الذين حافظوا عَلَى جنسيتهم ولغتهم ونبذوا التعصب الدينى وراءهم ظهريًا ولزموا إخوانهم مسلمى العرب وأثبتوا أنهم من أبناء غسان وطى وتغلب الذين هم من صميم العرب.

٣ - فظاعة الحرب وسفك الدماء وتخريب البلدان والمدن وقطع الأشجار وتعطيل الأرض وانتشار الوباء وهدم المنافع العمرانية وبعبارة أخرى القضاء المبرم

عَلَى الحركة الاقتصادية ولذلك ارتفعت أسعار الحاجيات ستة أضعاف ما كانت عليه سابقًا.

٤ – تلطيخ الدين المسيحى والازدراء بتعاليمهِ ومبادئه لأن مسيحى الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم. وقد أجمع المؤرخون عَلَى أن المسلمين تقيدوا بالفضائل الدينية وراعوا المصلحة الإنسانية أكثر من الفرنج الناكثى العهود والقاتلى الأسرى والذين أفحشوا فى سفك الدماء لما دخلوا القدس وحقروا الديانة المسيحية فى مهدها ولكنهم ذهبوا وخلفوا بقايا كثيرة من جنسهم مما سنوضحهُ فى تاريخ قبائل وأسر فلسطين. فبعض الألقاب الموجودة فى بيت لحم والناصرة والقدس وبيت جالا وغزة ويافا تدل عَلَى أن حامليها ليسوا عربًا ولكن اصطبغوا وطبخوا فى معمل العربية وتزوجوا بنساء شرقيات عربيات وتوطنوا فى البلاد واندغموا فى أهلها وكذلك يوجد قبيلة بدوية خلف الجوف تدعى «صليبه» شقر الوجوه لا يتزوج العرب منهم ويدعون أن أصلهم صليبيون كما ورد فى تاريخ سينا والمقتطف.

أما الآثار الصليبية فلم يبق إلا قليلها: منها كنيسة الصلاحية وبقايا كنيسة البيرة والدير فى الرملة وحصن عثليت وقلاع صفد وطبرية والشوبك والكرك. ولم يؤثروا عَلَى لغة السكان ولهجتهم بل ظل العرب عربًا يخاطبون الفرنجة عند الحاجة بواسطة التراجمة ولم يتعلم أحد الفريقين لغة الآخر لما بينهما من سابق العداوة المتأصلة فكان إذا تغلب فريق عَلَى مدينة نزح عنها الآخرون ولكن لما طال بهم الأمد امتزجوا قليلاً فخف الكره والبغض كما ورد فى رحلة ابن جبير الأندلسى ومما قاله عن مدينة بانياس أثناء زيارته لسورية:

«هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين وهى صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر يفضى إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجائها ولها محرث واسع فى بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للفرنج يسمى «هونين» بين الفرنج والمسلمين ولهم فى ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ويتشاطرون الغلة عَلَى السواء

ومواشيها مختلطة ولا حيف يجرى بينهم.. الخ. ثم جاء إلى تينين فى عجلون حيث يقدمون فيه والضرائب «جمارك» فقال والضريبة دينار وقيراط صورية ولا اعتراض عَلَى التاجر ثم مرّ بضياع كثيرة وعمائر منتظمة سكانها كلهم مسلمون يؤدون للفرنج نصف غلتهم وديناراً وخمسة قراريط جزية عَلَى كل رأس ونزل بضيعة من ضياع عكا الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الفرنج فأضاف القافلة ضيافة حافلة وزار مدينة عكا ونزل بالخان ووصف كتاب الفرنج والسفن والمرفأ ومركزها التجارى وكثرة سكانها ثم ذهب إلى صور ومنها إلى الأندلس.

أما ابن بطوطة فجاء إلى فلسطين بعد ختام الحروب الصليبية من مصر عن طريق الساحل فقال: «إنه قدم قطية حيث تؤخذ فيها الزكاة وتفتش أمتعة التجار «جمرك» وهناك كتاب ومجباها كل يوم ألف دينار ذهب ثم جاء غزة فوصف عمارتها وأسواقها ومساجدها وعلماءها ومنها عطف على خليل الرحمن فقال إنها مدينة صغيرة الساحة وذكر مسجدها وموقعها الطبيعى وعرج عَلَى تربة يونس عليه السلام ثم زار بيت لحم وقال إنهم يضيفون الغرباء وأتى القدس فوصف قبة الصخرة ودهش بها وذكر فضلاء القدس وعلماءها وروى أن الأمير سيف الدين تنكيز حاكم دمشق جر الماء إلى القدس وسافر ابن بطوطة إلى عسقلان فوجدها خرابًا يبابًا [ولا ندرى لماذا لم يزر عسقلان لما كان فى غزة] ثم سافر منها إلى الرملة فقال إنها كثيرة الخيرات حسنة الأسواق وبها الجامع الأبيض وذكر بعض علمائها منهم مجد الدين النابلسى. ثم خرج منها إلى نابلس وقال إنها مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتونًا ومنها يحمل الزيت والصابون إلى دمشق الشام وبها تصنع حلواء الخروب ثم ذهب منها إلى عجلون فوصفها واجتاز غور أبى عبيدة ومر بمدينة عكا ومنها إلى صور فمكث فى سورية مدة ورجع إلى زيارة الحجاز فركب بصحبة الأمير محمد بن شيخ قبيلة العجارمة فمر بذرعاه ثم بصرى وزيزاء «جيزة» واللجوم وحصن الكرك ووصفهُ وبالغ فى مناعته».

٥٩ - فرسان مار يوحنا «الاسبتاليون»

أسس الصليبيون هذه الفرقة وألفوها لتمريض الجرحى والمرضى وخدمة الإنسانية البحتة «كالصليب الأحمر» فاتخذوا سمة خاصة وهى رسم صليب ذى ثمانى نقط عَلَى جنب لباسهم الأيسر وجعلوا دير مار يوحنا فى سوق افتيميوس جنوب كنيسة القيامة مستشفى لمواساة الضعفاء ثم تغيرت مهمتهم أثناء الحروب وأصبحت عسكرية محضة حتى إنهم كانوا أشد الجنود الصليبية عَلَى صلاح الدين وأكثرهم نكاية بجنده وأثبتهم أمامه ولما خرج الفرنج من القدس تحولوا إلى صور ثم إلى عكا وهناك استماتوا فى الدفاع عن الصليبيين ولكنهم جلوا وسكنوا جزيرة رودس حتى أخذها منهم العثمانيون فنزحوا إلى مالطة ولا يزال منهم جماعة تمثلهم وتحيى ذكرهم فإنهم أنشأوا فى القدس مستشفى عيون فى البقعة واقعًا بين بركة السلطان والمحطة ولا أحد ينكر ما له من الخدمات والأيادى البيضاء على سكان البلاد بمعالجة عيونهم ومداواتها ويؤمه فى عهدنا هذا ألوف من الناس للاستشفاء. ولهم أيضًا مضافة (Hospice) فى آخر شارع الخانقى بالقرب من سوق حان الزيت.

٦٠ - فرسان الهيكل

تألفت فرق صغيرة أخرى غير فرسان مار يوحنا أهمها فرسان الهيكل (الداوية) وكانت مهمتهم حماية الزوّار وإيصالهم إلى القدس وحراستهم من تعدى المسلمين غير أنهم تحوّلوا إلى فرقة عسكرية شديدة البأس والشكيمة واتخذوا الجامع الأقصى مقرًّا لهم وجعلوه مخزنًا لطعامهم وأسلحتهم وبنوا فيه محلات أخرى فاستبدوا وظلموا وولعوا بالنهب والسلب ولذلك أنذرهم صلاح الدين بأنه لا يأسر أحدًا منهم إلا قتله ونقم عليهم البابا والناس أجمعون فتلاشوا وانقرضوا.

أتى الصليبيون ففتحوا البلاد وتمكنوا بها إلى أن قيض الله للشرق البطل الكبير صلاح الدين رأس الأسرة الأيوبية فقضى عليهم وفتح معظم البلاد العربية ثم أورثها أخاه وأبناءه وتداولوها حتى سنة ١٢٥٠ م وسنة ٦٤٨ هـ حيث ضعفت

شوكتهم وتقلص نفوذهم ودالت دولتهم فقتل الملك الظاهر بيبرس توران شاه سنة ٦٤٨ هـ وانتخب بعده «شجرة الدر» وهى الملكة الوحيدة التى توجت فى الممالك الإسلامية العربية وضربت السكة باسمها وخطب لها فنفر أمراء دمشق وانضموا إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب فأعلنوا طاعته ودخلت جميع بلاد سورية فى حكمه فعظم الخبر عَلَى المصريين وخلعوها وولوا أمرهم عز الدين ايبك «المملوك» ولقبوه بالملك المعز فتزوج شجرة الدر ليرضى الشعب ولكنهُ لم يرق لهم هذا العمل واختاروا الملك الأشراف موسى بن يوسف صاحب اليمن وقرروا أن يكون ايبك أتابك جنده فغضبت دولة دمشق الأيوبية وسار الملك الناصر يوسف إلى مصر وحاول الاستيلاء عليها ولكنه فر منهزمًا واحتدم الخلاف بين مصر الأيوبية تحت إمارة المماليك ودمشق الأيوبية البحتة إلى أن أصلح بينهم الخليفة العباسى عَلَى أن يكون الحد الفاصل بينهما نهر الأردن. ثم ثار ايبك سنة ٦٥٢ هـ وخلع الأشرف واستبد بالملك فشق ذلك عَلَى المماليك ورحلوا إلى دمشق وأطمعوا صاحبها فى ملك مصر واستحثوه فسار إلى غزة وهناك اتفقوا عَلَى أن يكون حد الدمشقيين العريش. وفى سنة ٦٥٧ هـ قدمت عساكر هولاكو التترى وتملكوا الشام وقتل الملك الناصر ابن الأشرف سنة ٦٥٩ هـ فانقرض ملكهم من الشام كما انطفى من مصر.